1065
el-İLMA
EL-KADI İYAZ

الإلماع

إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع

للقاضي عياض بن موسى اليحصبي

٤٧٩ — ٥٤٤ هـ

Türkiye Diyanet Vakfı
Kutüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

تحقيق

السيد أحمد صقر

Türkiye Diyanet Vakfı

الطبعة الأولى

الناشر

دار التراث
ص. ب ١١٨٥ - القاهرة

المكتبة العتيقة
تونس

١٣٨٩ هـ — ١٩٧٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

عياض المحدث

يعد عياض فى طليعة الرعيل الأول من علماء المغرب الذين طار ذكرهم كل مطار ، على اختلاف الأجيال والأعصار ، حتى قال قائلهم : لولا عياض ما ذكر المغرب . وشاع ذلك فى كتبهم ، ودار على ألسنتهم فى مجال التباهى والافتخار .

وكان مولده بمدينة سبتة فى منتصف شهر شعبان من سنة ست وسبعين وأربعمائة .

وقد عرف به ابنه محمد فى رسالة موجزة مركزة ، كانت العماد لكل من ترجم له من بعده ، قال فيها: إنه «عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى ابن عياض . وقد استقر أجدادنا فى القديم بجهة بسطة من بلاد الأندلس ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس . وكان لهم استقرار بالقيروان . فلا أدرى أكان قبل استقرارهم بالأندلس أم بعده ؟ . وكان « عمرون » والد جد أبى رجلا خيراً صالحاً ، من أهل القرآن . حج إحدى عشرة حجة . وغزا مع المنصور بن أبى عامر غزوات كثيرة . وانتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة بعد دخول بنى عبيد المغرب . وكان سبب ذلك أنه كان له ولأبيه نباهة بمدينة فاس ، فأخذ ابن أبى عامر رهنا من أعيان مدينة فاس ، فأخذ منهم أخوَىْ عمرون : عيسى والقاسم . فخرج عمرون إلى مدينة سبتة ليقرب من أخبارها بمدينة قرطبة ، فاستحسن سكنى مدينة سبتة . وكان موسراً ، فاشترى بها أرضاً ، وهى المعروفة بالمنارة ، فبنى فى بعضها مسجداً ، وفى بعضها داراً حبسها على المسجد ، وهى حتى الآن منسوبة إليه ، وحبس باقى الأرض للدفن ، ولم يزل منقطعاً فى ذلك المسجد إلى أن مات سنة سبع وتسعين وثلثمائة .

وولد له قبل وفاته بيسير ابنه : عياض . ثم ولد لعياض ابنه : موسى . ثم لموسى ابنه : عياض ، أبي . رحمهم الله .

ثم قال : نشأ أبي على عفة وصيانة ، مرضى الحال ، محمود الأقوال والأفعال ، موصوفا بالنبل والفهم والحذق ، طالباً للعلم ، حريصاً عليه ، مجتهداً فيه ، معظما عند الأشياخ من أهل العلم ، كثير المجالسة لهم ، والاختلاف إليهم إلى أن برع زمانه ، وساد جملة أقرانه . فكان من حفاظ كتاب الله تعالى ، مع القراءة الحسنة ، والنغمة العذبة ، والصوت الجهير ، والحظ الوافر من تفسيره ، وجميع علومه . وكان من أئمة الحديث فى وقته . أصوليا ، متكلما ، فقيها ، حافظا للمسائل عاقداً للشروط ، بصيراً بالأحكام ، نحويا ، ريّان من الأدب ، شاعراً مجيداً ، كاتباً بليغاً خطيباً ، حافظاً للغة والأخبار والتواريخ ، حسن المجلس ، نبيل النادرة حلو الدعابة ، صبوراً حليما ، جميل العشرة ، جواداً سمحاً ، كثير الصدقة ، دءوباً على العمل ، صليباً فى الحق . وبلغ فى التفنن فى العلوم ما هو مشهور ، وفى العالم معلوم .

وأخذ عن أشياخ بلده سبتة ، كالقاضى أبى عبد الله بن عيسى ، والخطيب أبى القاسم ، والفقيه أبى إسحاق بن الفاسى ، وغيرهم .

ثم رحل إلى الأندلس . وكان خروجه من سبتة يوم الثلاثاء . منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة . فوصل إلى قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة بعدها . فأخذ بها عن : ابن عتّاب ، وابن حَمْدين ، وابن الحاج ، وابن رُشْد ، وأبى الحسين بن سراج ، وأبى الحسن بن مغيث ، وأبى القاسم ابن النحاس ، وأبى بحر الأسدى ، وأبى القاسم بن بَقِيّ ، وأبى الوليد : هشام ابن أحمد العواد ؛ وغيرهم من أعلام قرطبة .

ثم خرج منها إلى مُرْسية يوم الاثنين لخمس بقين من المحرم ، سنة ثمان من

التاريخ ، فوصل مُرْسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده ، فوجد أبا على الصدفى مختفياً ، ووجد الرَّحّالين إليه قد نفدت نفقات بعضهم ، ومنهم من ابتدأ كتاباً لم يتمه ، فأخذ أكثرهم فى الرجوع إلى موطنهم ، وتربص بعضهم . فمكث هو بقية صفر وشهر ربيع الأول لا يقع على خبر ، سوى الظن بكونه هنالك . وقابل أثناء ذلك بأصوله ، وكتب منها ما أمكن على يد خاصة من من أهله . ولا يشك أن تصرفه فى ذلك لم يكن إلا بأمره ، إلى أن وصل كتاب قاضى الجماعة : أبى محمد بن منصور ، بِحَلِّ القاضى أبى على من القضاء . ووصل كتابه أيضاً إلى أبى معلماً له بذلك ؛ إذ كان يَكْرُمُ عليه ، وعلم برحلته إليه ، فخرج أبو على من اختفائه ، وجلس للتسميع ، فسمع عليه كثيراً ، ولازمه ، وكان له به اختصاص ، فحصل له سماع كثير ، فى أمد يسير .

وحكى أبى : أبو الفضل عياض ، رحمه الله : أن القاضى أبا على الصدفى ، رحمه الله ، قال له : لولا أن الله يسر خروجى بلطفه ، لكنت عزمت أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس ، لا يؤبه لكونى فيه ، فتدخل إليه ، وأخرج مختفيا إليه بأصولى ، فتجد ما ترغب ؛ لما كان فى نفسى من تعطيل رحلتك ، وإخفاق رغبتك .

ولقى فى رحلته هذه جماعة من أعلام الأندلس ، وأجازه أبو على الجيّانى ، وشريح ، وابن شبرين ، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس ، وأجازه أيضاً أبو جعفر بن بشتغير ، وابن الأدقر ، وأبو زيد بن منتال ، وغيرهم من أعلام شرق الأندلس .

ووصل بلده بعد هذه الرحلة ليلة السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسمائة . وأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه فى المدونة ، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً . وبعد ذلك أجلس للشورى . ثم ولى القضاء عام خمسة وعشرين وخمسمائة

لثلاث بقين من صفر ، فسار فيها أحسن سيرة ، محمود الطريقة ، مشكور الحالة : أقام الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها . وبنى الزيادة الغربية فى جامع سبتة التى كمل بها جماله . وبنى فى جبل الميناء الرّابطة المشهورة ، إلى غير ذلك من الآثار المحمودة ، والمساعى المرضية ، فعظم جاهه وبعد صيته .

ثم نقل إلى غرناطة ، ووصل إليه الكتاب بذلك فى أول يوم من صفر عام أحد وثلاثين وخمسمائة ، فنهض إليها ، وتقلد خطة قضائها ، على المعتاد من شيمته السنية ، وأخلاقه المرضية ، مشكوراً عند جميع الناس ، لكن « تاشفين » ضاق به ذرعه ، وغصّ بمراقبته ، وصد أصحابه عن الباطل ، وخدعته عن الظلم ، وتشريدهم عن الأعمال ـ فسعى فى صرفه عن قضاء غرناطة ، فصرف بعد انفصاله عنها زائراً أهله ، وترك ابن أخيه الزاهد : أبا عبد الله ، رحمه الله ، على الأحكام وذلك فى رمضان المعظم ، عام اثنين وثلاثين وخمسمائة .

ثم ولى قضاء « سبتة » ثانية ، فى آخر عام تسعة وثلاثين وخمسمائة . قدمه إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين . فابتهج أهل بلده بذلك ، فسار فيهم السيرة التى عهدوا منه .

ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول فى نظام « الموحّدين » والاعتصام بحبلهم المتين ، فأقرّه أمير المؤمنين ـ أدام الله أمره ـ على ما كان عليه ، وصرّف أمور بلده إليه ، وخاطبه بالتنويه ، وحظى عنده ، وشَكَرَ بِدَارَهُ وسَبْقَه . ثم رحل إليه فاجتمع به بمدينة سلا ، عند توجهه لمحاصرة مَرّاكُش ، فأوسع له ، وأجزل صلته ، ولقى منه براً تاماً ، وإكراماً عاماً ، وانصرف على أحسن حال إلى أن ثارت الفتنة » .

والفتنة التى يشير إليها ابن عياض هى ثورة أهل سبتة على الموحدين فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة بزعامة عياض . وقد نجحت فى أول الأمر

ثم أخذها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين ، وتاب إليه أشياخ سبتة فعفا عنهم ، وأقصى عياضا عن القضاء ، حتى أدركه القضاء . وظل غاضبا عليه حتى استعطفه بالمنظوم والمنثور فرق له وعطف عليه ، ولكنه لم يعده إلى منصبه .

وزعم ابن خلدون ٦/ ٢٣٠ أن عياضا لما تولى كبر دفاع عبد المؤمن عن سبتة ، وكان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه . وسخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة بتادلا ، مستعملا فى خطة القضاء بالبادية » . وهو زعم يدفعه قول محمد بن عياض ، فقد قال : إن أباه عياضا نهض لمراكش من سبتة فى اليوم الخامس والعشرين من جمادى الثانى عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة ، فاجتمع فيها بعبد المؤمن ، وأمره بلزومه محله إلى أن خرج عبد المؤمن لغزو دكالة ، فخرج بصحبته ، فمرض بعد مسيرة مرحلة ، فأذن له فى الرجوع فرجع إلى حضرة مراكش ، فأقام بها مريضاً نحواً من ثمانية أيام ، ثم مات ليلة الجمعة نصف الليل التاسع من جمادى الآخرة عام أربعة وأربعين وخمسمائة ، ودفن بها فى باب إيلان داخل السور » .

وإن تلك الأوصاف الجميلة التى وصف بها ابن عياض أباه قد يكون لعاطفة البنوة دخل كبير فى إسباغها عليه ، ولكن الذين خالطوا عياضاً وخبروا أحواله قد وصفوه بمثلها أو بأحسن منها ، فهذا القاضى ابن القصير يصف لقاءه الأول لعياض ، ويتحدث عن خلاله وسجاياه ، فيقول : « لما ورد علينا القاضى عياض غرناطة ، وخرج الناس للقائه ، وبرزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمر مثله ، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركاباً نيفاً على مئتى راكب ، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة . وخرجت مع أبى رحمه الله ، فى جملة من خرج ، فلقينا شخصاً بادى السيادة ، منبئاً عن اكتساب المعالى والإفادة ... ولما استقر عندنا كان مثل الثمرة ، كلما ليكت زادت حلاوة . ولفظه عذب

فى كل ما صرف من الكلام، للنفس إليه تتوق وله طلاوة . وكان برا بلسانه، جواداً ببنانه ، كثير التخشع فى صلاته ، مواصلا لصلاته . وقد جمعنا من سيره جملا فى الكتاب الذى جمعنا فيه مناقب من أدركنا من أعيان عصرنا ونبهائه ، وذكرنا له ما يفاخر برونقه وبهائه . وكان مع براعته فى علوم الشريعة خطيباً فى تحبيره للخطب وفى لفظه ، ظاهر الخشوع عند التلاوة وفى لحظه ، سريع العبرة ، مديما للتفكير والعبرة ، كاتباً إذا نثر ، ناظما إذا شعر .

ثم ذكر حادثة جرت بينه وبينه فى مجلس الدرس ، فيها دلالة بالغة على إنصاف عياض وتواضعه وعلم تلميذه وشجاعته فى مجابهة أستاذه بخطائه . قال : « دخلت مجلس القاضى أبى الفضل عياض ، رحمه الله ، إذ كان قاضياً عندنا بغرناطة ، وبه جماعة من الطلبة والأعيان ، يسمعون تأليفه المسمى بالشفاء ، فلما وصل القارىء إلى هذه الكلمات : «ومن قسم به أقسط» قرأه ثلاثيا . وكذلك كان فى الأم التى يقرأ فيها . فقلت للقاضى ، وصل الله توفيقه : هذا لا يجوز فى هذا الموضع . فقال : ما تقول ؟ فقلت : إنما هو أقسط ؛ لأن المراد فى هذا الموضع « عدل » فالفعل رباعى ، كما قال الله تعالى : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ وأما « قسط » فإنما هو : « جار » كما قال تعالى : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ فتعجب وقال لمن حضر : إن هذا الكتاب قد قرأه علىّ من العالم ما لا يحصى كثرة ، ولا أقف على منتهى أعدادهم ، وما تنبه أحد لهذه اللفظة ! وفاه بلسان الإنصاف ، وشكر بفضله ، وأبلغ ببراعة علمه فى تحسين المناقب والأوصاف . وأورثنى ذلك عنده كرامة كبيرة ومبرة ، ولم تزل مستمرة ، وصنع من المكارم أجزل صنيع وأبره . رحمه الله من طود علم ، وهضبة فضل وحلم ، وتغمده وإيانا برحمته ، ونفعه كما نفع فى الدنيا والآخرة بعلمه » .

وهذا تلميذه ابن بشكوال يقول عنه : إنه عنى بلقاء الشيوخ والأخذ

عنهم ، وجمع من الحديث كثيراً ، وله عناية كبيرة به ، واهتمام بجمعه وتقييده . وهو من أهل التفنن فى العلم والذكاء واليقظة والفهم . واستقضى ببلده مدة طويلة فحمدت سيرته فيها »

أما معاصره الفتح بن خاقان فقد قال عنه فى قلائد العقيان : « جاء على قدر وسبق إلى نيل المعالى وابتدر ، واستيقظ لها والناس نيام ، وورد ماءها وهم حيام وتلا من المعارف ما أشكل ، وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل ، فتحلت به للعلوم نحور ، وتجلت له منها حور ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . قد ألحفته الأصالة رداءها ، وسقته أنداءها ، وألقت إليه الرياسة أقاليدها ، وملكته طريفها وتليدها ، فبذ على فتائه الكهول سكوناً وعلماً ، وسبقهم معرفة وعلماً ، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح ، وسرت فضائله سرى الرياح ، فتشوفت لعلاه الأقطار ، ووكفت تحكى نداه الأمطار . وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة ، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة — يعنى بإقامة أود الأدب ، وينسل إليه أربابه من كل حدب . إلى سكون ووقار كما رسا الطود . وجلال مجلس كما حليت الخود ، وعفاف وصون ، ما علمنا فساداً بعد الكون ، وبهاء لو رأته الشمس ما باهت بأضواء وخفر ، ولو بان للصبح مالاح ولا أسفر . وقد أثبت من كلامه البديع اللفظ والأغراض ، ما هو أسحر من العيون النُّجل والجفون المراض . . »

وتعاور المترجمون له من بعد ذلك تقريظه بما لا يخرج عن تلك المعانى التى ذكرها هؤلاء الذين شاهدوه ، وفى مقدمتهم ابن الأبار المتوفى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فقد ترجم له فى كتابه معجم أصحاب أبى على الصدفى وقال فى ترجمته : « كان لا يدرك شأوه ، ولا يبلغ مداه فى العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار ، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل فى فهم معانيه، إلى اضطلاعه